

القول الفصل

محاورة في سعادة الأمة (١)

نظر بعض أصحاب الافكار الصافية والعقول النيرة في كتب التاريخ
نظر التأمل والاعتبار ووقف على شيء من أحوال الأمم في اطوارها
وأدوارها من بدائة وحضارة وهمجية ومدنية وقوة وضعف وصعود
وهبوط وغلبة وانقلاب ونحو هذا من الصفات المتقابلة والشؤون المختلفة
فخدا بهمه النظر بعين البصيرة الى طلب النظر بعين البصر والسير في الارض
لمشاهدة آثار العالمين وتطبيق ما يرى على ما علم فضرب في الارض شرقاً
وغرباً وخالط الأمم عجماً وعرباً واكتنه الاخلاق واختبر العادات وشاهد
سير العلوم والفنون ووقف على امهات الصنائع والاعمال وسبر قوى العقول
والافكار ثم شرع في المقابلة والتنظير فتجلى له ان الاستعداد الفطري
والقوى الطبيعية في تلك الأمم واحدة وان اختلاف الحالات لم يأت من
اختلاف المدارك والتفاوت في الاستعداد وان انتهى الى درجة يكاد
يلتحق بها فريق بالمجاوات ويخرج من عداد الانسان ويرتقي بها فريق
آخر عن النوعية الآدمية الى مصاف الملائكة وانما جاء من أمور عارضة
وظروف خارجية . وأعمل فكره في معرفة مناشيء هذه العوارض وعلل
هاته الطوارىء وارتقى في الاسباب الكثيرة وتبصر في تأثيرها فعرف
كيف يمكن اتقاء العوارض المضرة وازالة الطوارىء التي دفعت في صدور

(١) نشرت في فاتحة العدد الثاني الذي صدر في يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٣١٥ هـ

بعض الامم فأخرتها وامسكت بجزاتها عن التقدم الذي يرشدها اليه
 الالهام الالهي والقوى القدسية التي منحها الله للانسان . ثم رجع هذا
 العاقل الى وطنه وقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب وصار من اطباء النفوس
 القادرين على مداواة أمراض أمتهم وعجب لاغفال الجماهير من قومه هذا
 النظر وهذه السياحة حتى كأنهم عميان وصار يردد في نفسه هذه النصوص
 (أفلم ينظروا) (أولم يتفكروا) (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم
 قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تسمى الابصار ولكن تسمى
 القلوب التي في الصدور)

ثم وجه عنايته لتبليغ قومه على ما استفاد في سياحته (لعلهم يتقون
 أو يحدث لهم فكري)

ولما ان جاء القوم للسلام عليه سأله عن رحلته من حيث سهولة
 السفر ومشقته وما كان طعامه وشرابه فيه وعن منزهات البلاد التي
 زارها فمد لهم بلطف على هذه الاسئلة واعتذر لهم عن نسيانه لهذه الامور
 وطلق يمدحهم عن معارف البلاد لا عن معارفها وعن مصانعها لا عن مراقبها
 واطال في الكلام عن الامم المتمددة وعما رأى فيها من موارد الراحة السائقة
 وبرود النعمة السابقة حتى ادهشهم وكان يتكلم عن اتعالي وتأثر، ويشوب
 كلامه بالتأوه والتحسر، فأثرت حالته في نفوسهم وحركت منها كوامن
 الغيرة واحب فريق منهم ان يبحث معه في سعادة الامم وشقاؤها وشذبتها
 ورخاؤها، وهبوطها وارتقاؤها، فاعترضه آخرون قائلين ان الكلام في هذا
 الموضوع يتعب البال ويزعج الخاطر وهو عبث لا يفيد شيئاً فان الامر
 كله لله وليس لارادة الناس أثر في أعمالهم ولا لاعمالهم أثر في منافعهم

بل ليس لهم ارادة أيضاً بل هم في الحقيقة كالريش في الفضاء تصرفه رياح الاقدار المتناوحة وتلاعب به ولا ارادة ولا اختيار نستغفر الله لانكر الاختيار فانه مذهب أهل السنة ولكن الحقيقة ما قاله بعض المحققين (سني في الظاهر جبري في الباطن) فاجابهم أولئك قائلين : انكم تؤمنون بلفظ الاختيار دون معناه وكأنكم ترون ان حركة اللسان بلفظ الاختيار هي الفصل الذي يخرجكم من عداد طائفة الجبرية الذين انفق اساطين علماء الملة على فسوقهم من الاعتقاد الحق ونبذهم بلفظ الابتداء في الدين

اما علمتم ان الالفاظ لا تدخل في ماهية العقائد وحقيقة المذاهب وان الخلاف في اطلاق اللفظ على معنى متفق عليه يرجع الى الاصطلاح الذي لا مشاحة فيه . أتزعمون انه لا واسطة بين الجبر والقدر وان الذين يسمون أهل السنة جبرية في الحقيقة لكنهم لما عجزوا عن الجواب على ما يستلزمه هذا المذهب من تخطئة تشريع الشرائع وازال الكتب تستروا بلفظ الكسب والاختيار (يقولون بالسنة ما ليس في قلوبهم) .
حاشام حاشام ونستغفر الله من هذا الضلال البعيد

فاجابهم السائح العاقل على رسلكم فما هؤلاء بجبرية ولا سنية ولا قدرية ولكن عموم الجهل جملهم (مذنبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) وانني رأيت الكثير من امثالهم في سياحتي في البلاد الاسلامية . كنت اذا ذكرت المصري مثلاً في أمر يتعلق بمصلحة وطنية يتوكأ على عكاز الجبر ويقول « هو بيدنا ايه » واذا قلت سوريا في مثل ذلك

يستند على هذه النص أيضاً ويقول « شو طالع باليد » وربما اردفوها على سبيل الاحتجاج بهذا النص الشريف (ليس لها من دون الله كاشفة)
 كلمة حق أريد بها باطل وتمسكهم بها عرض زائل أرأيت ان ألت ملحة بشؤونهم الخاصة كيف يجتهدون بتلافيها بما يستطيعون من الاسباب بل وتعدون الاسباب الطبيعية الى ما ليس بسبب اصلا ويتخذون الوسائل الوهمية التي يأبها الشرع وينبذها العقل كالاستعاذة بالعوالم غير المنظورة من الجن والشياطين والاستعانة بالاموات من العلماء والصلحاء يخاطبون هؤلاء لدى اجدائهم ويستنهضون همهم بالصياح والصراخ وتقديم هدايا الفواتح . ويستنفرون أولئك بالعزائم والطلاسم واحراق البخور في الجامر ويستنبئون عن حقيقة الامور بخطوط الرمل أو الطرق بالحصى وحبوب القول ويتعرفونها من الدجاجلة والمرافين

فتبين لكم كيف ان هؤلاء الحمقى قد جمعوا بين مذاهب المتدعة على تضادها وتباينها وتخطوا اوساط الامور الى طرفي الافراط والتفريط فهم جبرية بازاء المصالح العامة وقدرية تلقاء منافهم الخاصة

وقد نظرت في التاريخ سير المعلوم واختبرت حالتها اليوم فرأيت العلماء الباحثين في مسائل الجبر والقدر والكسب قصروا انظارهم على مفهومات هذه الالفاظ وتقليدوا فيها ولم يلتفتوا الى ما تحدثت هذه العقائد في الارادة من الآثار وما يتبع تلك الآثار من الاعمال وما ينشأ عن تلك الاعمال من ضعف أو قوة فينهبوا الامة عليه

ألفوا فيها المتون والشروح وعلقوا عليها الحواشي والتقارير فما زادت الامة تآليفهم الاحيرة واشكالا وكانوا كجواب الجاهيل يندأ حدم السير

سحابة نهاره وعامة اليه ثم لا يدري هل ازداد بسيره قريباً أو بعداً (سيفرد
المنار مقالة مخصوصة لهذه المسألة)

واما الذين لم يبلغ الجهل منهم مبلغ انكار الوجدان والقول بالجبر
الصراح فهم يعدون ان الاخذ بالاسباب عملاً واعتقاداً رباطها بالمسببات
بحيث لا تتخلف عنها اذا تمت شروطها ولا تحصل الا معها هو الحق وان
انكشاف الخطوب على أيدي الآخذين بأسبابها التي سنها الله تعالى لها
لا يقتضي انهم عاندوا الارادة الالهية وكانوا هم الكاشفين لها من دون
الله تعالى

فجبل المحتجون بالجبر عند هذا البيان واتفق القوم كلهم على البحث
مع السائح العاقل في شؤون ترقية امتهم وعن الاسباب التي ينبغي الاخذ
بها للحصول على هذه الامنية الشريفة . واجمعوا على ان يكون البحث
على طريق السؤال والجواب لانه أدعى الى إلقاء السمع وتوجيه الفكر
وأقرب الى التنبه والتبصر وان يكون السائح هو السائل لانه اعلم بحاج
الامم لما أفاده العلم والاختبار ثم اذا اختلفوا في الاجوبة يحكمونه فيما شجر
بينهم ويكون بقوله العمل وعليه الفتوى

فقال اني ملق عليكم مسائل . متعددة في مواضع مختلفة وكلها تتعلق
بسعادة الامم وأطلب عليها كلها جواباً واحداً يؤدي بكلمة واحدة .
فقالوا له يشبه ان يكون كلامك هذا من الالغاز والأحاجي فكيف السبيل
الى حل مهباه، وكشف مخبائه، وكيف يكون الجواب عن الاسئلة في المواضيع
المختلفة واحداً (ان هذا شيء عجاب)؟

فقال لا عجب فان كل كورة لا بد ان تجمعها جهة واحدة فكما ان

الوحدة التي نسميها سعادة الامة لا تحصل الا بامور كثيرة ترجع الى شيء واحد وهو (سعادة الامة) كذلك وسائل هذه الامور الكثيرة التي منها تستمد مسائلي تؤول الى شيء واحد «وسيلة ترجع اليها جميع الوسائل وسبب يجمع كل الاسباب» وهو الجواب الذي سأشرحه لكم ثم انشأ يسرد الاسئلة فقال

(س) ماهو التاموس الذي يحصل به الجذب والانجذاب بين العناصر المتفرقة ويحكم الالتصاق بين افرادها فيكون المجموع امة واحدة وبماذا توجد الرابطة التي تجعل مدار هذا المجموع على محور واحد

(س) أي شيء يحمو من نفوس افراد الامة الامة والاختصاص بالمنافع دون قومهم ويثبت فيها حب الوطنية والجامعة الجنسية بحيث يرى كل واحد ان منفعة في منفعة امة ومضرتها عين مضرته بل ماهي الروح التي تنفخ في آحادها فتعيا بعد مماتها وتجتمع بعد شتاتها وتكون جسداً واحداً اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد فاني أرى هذا الروح هو المدبر لبعض الامم وكأنه قد من امتنا بالكلية فانتثر عقد اجتماعهم . وأنحل تركيب بنيتهم . وهرقت كلمتهم . ورزوا بالتخادم والتنازع . والتباغض والتحايد . وأصبحوا و «باسمهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» وأنى يفقهون معنى هذه الحياة الجنسية . وسر هاته الجامعة الوطنية . وكيف تحصل لهم . وبماذا توجد فيهم . وأنى يجتمعون في صعيد واحد مع اختلاف منابيتهم وتقطع وشائجهم

(س) اذا اعتقدت الامة بافرادها انحطاط المدارك وضعف العقول وعدم الاستعداد التطري لا حذاء الابعم الاخرى فيما جاءت به من عجائب

الصناعات وما استنبطته من دقائق العلوم والفنون لأنها شاهدت الآثار التي انتهت إليها وهي في غيبة عن مبادئها وكمية نموها فإني يكون تفتيحها إلى ما أودع فيها من القوى الطبيعية والقدر الوهية الكامنة في أرواحها ككحون النار في الحجران قدحته أورى ، وإن تركته توارى ، وأنه ليس عليهم في إبراز آثار هذه القوى الاستعمال فيها خلقت كالاستعمال الآخرون (س) إذا تمكن في النفوس اليأس من التقدم والقنوط من الترقى لا اعتقاد أن زمن التدارك قد فات وأنه لا يمكن مجازاة المتخلف لمن بلغ الغاية وإن كان الاستعداد واحداً . فقلت لذلك الأيدي عن العمل كأنما هي مشاولة . ووقفت الأرجل عن السبي حتى كأنها مقطورة . (أي محبوسة في المقطرة وهي خشبة مثقوبة توضع فيها أرجل المحبوسين) فبماذا تنزع الأغلال وتكسر المقاطر وتتم تلك النفوس بحلاوة الرجاء بعد مرارة اليأس وتندفع اندفاع الجياد القرح إلى طلب المجد المؤمل الذي تطلبه بحق ونجري فيه على هرق

(س) إذا حاول بعض أهل الثراء أن يحتذي شاكلة السابقين ويتلونوا الشعوب المتمدنة فأنشأ يقلدهم في أحوال معيشتهم التي انتهت بهم إليها طبيعة بسطة الملاك وسمة الثروة فشيء القصور ونقش الجدران وزينها بالارائك والزرايب والسجوف والمصايح وسائر أنواع الآنية والماعون النفيس الذي يجلبه من بلاد تلك الشعوب . فكيف يمكن اقناع هؤلاء بأن هذا التقليد تذييف على جرح الأمة واجهاز على حياتها وبه ينضب معين ثروتها على أنه ليس لديها من أمواه الثروة إلى بقية وشل . وإن التقليد النافع إنما يكون في خدمة المعارف والسير في طرقها التي سار فيها أولئك

وفي الاعمال النافعة التي هم لها عاملون

(س) كيف تحافظ الامم على اديانها ولغاتها وعوائدها النافعة اذا كانت مهددة من اُمم أخرى بحكم ناموس تنازع البقاء . وكيف ظلت اللغة العبرانية محفوظة في السنة الاسرائيليين مع ما ابتلوا به من فقد السلطة والشتات في الاقطار وما رزوا به من جور الحاكين واضطهاد الظالمين . ولماذا فسدت ملكة اللغة العربية من السنة اربابها مع نحو عمرانهم وامتداد سلطانهم

تسمع ولدان اليهود في روسيا والمانيا واستريا وفرنسا وانكلترا واسبانيا وافريقية وأميركا يتكلمون بلسان كتابهم (التوراة) على نحو ما كان يتكلم به اباؤهم الاولون . ولم يصددهم عن حفظه معرفة لغات الشعوب الذين هم عايشون في بلادهم . وشيوخ المسلم في مصر والشام والعراق والغرب بل وفي الحجاز واليمن يكتفون بوجود لغة (القرآن) في مطاوي الكتب وبطون الدواوين

(س) كيف يمكن التغلب من اشراك العادات الرديئة وأحاييلها والتفصي من عقل التقاليد المضرّة التي أوقفنا عن السير وأحدثت فينا قناعة البهم وبغضت الينا كل جديد وان كان فيه سعادتنا وقد استحكمت بقوالي الايام وكروور السنين . وقويت على سلطان العقل وارشاد الدين حتى اعتقد الآخذون بها حسنها وأنكروا على من أخل بشيء منها « ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » اما والله لو أن أجسادنا هذه تدبرها أرواح كارواح اباثنا الاواين اكننا نحن السابقين الى كل ما يسمى اختراعاً واكتشافاً وعملاً نافعاً

(س) اتنازى كثيراً من الاخلاق والعادات لها وجهة للخير ووجهة للشر يجتني نفعها أناس ويصاب منها بالضرر آخرون ، فكيف يثفرع عن الاصل الواحد فروع مختلفة وآثار متباينة ، وبماذا اهتدى الاوريون للارتفاع من اختلاف رجال العلم ورجال السياسة وتنازعهم وتينوا من هذا الاختلاف والتنازع محجة الصواب وحقيقة الامر حتى كان نور الحقائق العلمية والمصالح السياسية لمعان البرق لا يظهر الا بين الايجاب والسلب

ولماذا كان الاختلاف والتنازع في الشعوب الشرقية حجاباً على وجه الحقيقة وغشاوة على عين البصيرة تضيع فيه المصالح وتدرس رسوم المنافع حتى كان تصادم أفكارهم تصادم القوارير

(س) ما هو الغاسول المطهر للاذهان من أفتاد الوساوس والاهام التي توقع في الخوف مما لا يخيف ورجاء ما لا يفيد وبماذا يكون ترميج (افساد السطور المكتوبة) ماسطراً في ألواح النفوس من أساطير الخرافات أو محوه بالكلية ، ورسم آيات الحكمة وإثبات نقوش الحقائق على هذه الألواح الشريفة القدسية

(س) بماذا يعرف المجد الصحيح من المجد الباطل والكمال الحقيقي من الكمال الوهمي فتتحول مجاري نفقات الافراح والاحزان من الولائم والوضائم وما يتبعها الى التعليم والتربية ويستبدل تشييد المكاتب والمدارس الوطنية بتشييد القصور على القبور (الاحواش) الذي استن المصريون فيه بسنة «خوفو» و«خفرع» و«منكورع» الذين شادوا الالهرام لحفظ جثثهم الشريفة (س) ما هو العلاج الذي يستأصل جرائم الفساد والدواء القاتل

« ليكروب » الادواء الروحية الشافي من الامراض القلبية التي تتولد عنها
الآثم والموبقات

(س) متى تقل الامراض الجسدية ويتزين مجموع الأمة ببرود
الصحة الضافية ويلقون عن عواقبهم اسمال الامراض وأخلاق الاسقام
ويقل فيهم فتك الاوبئة اذا لم يمكن نحو هذه المصائب بالكلية

(س) بماذا تحصل الثروة للامم فانا نرى بعض الشعوب استولى
عليها الفقر المدقع فلا يوجد فيها من الاغنياء الا افراد قلائل والكثير
منهم مانال الثروة بطرق مشروعة واعمال شريفة والسؤال انما هو عن
ثروة الأمة من الطرق الشريفة المشروعة . ولو وزعت ثروة من ذكرنا
على الأمة بالتعديل لم تخرج من عداد الامم الفقيرة (قال السائل الحكيم)
واذا قلم زراعة . صناعة . تجارة . فاني لا اعتد ذلك جواباً بل هو يحلني
على التفصيل بالقاء اسئلة أخرى في موضوع الثروة فأقول .

(س) ما الوسيلة الى تحسين حالة الزراعة بحيث تفيض الارض بالخيرات
والبركات التي هي كنوزها الحقيقية . ولماذا كان أهالي فرنسا بل وأهالي
زيلندا (جزيرة في البحر المحيط) أكثر ثروة زراعية من أهالي مصر
بالنسبة لمساحة الارض مع ان أرض مصر أخصب تربة ورجالها أكثر
جلداً على العمل وعندهم النيل الذي ليس له في زيلندا ولا في فرنسا نظير .

(س) ما الذريعة الى اتقان الصناعة وتوسيع دائرتها والتفنن في تنويعها
بحيث تكفي بها الأمة وتحفظ ثروتها عن اغتيال الاجانب لها وجعلها طالة
عليهم ثم تكفي غيرها من الامم التي أصابها مرض الجبل والكسل فاقعداها
عن الاعمال

(س) ماهي الطريقة للتصرف بأساليب التجارة التي عليها مدار الثروة
 الأكبر والتي هي من الصناعة والزراعة كالتقوية المتصرفة من المعلومات
 والمدركات . أو كالشرايين والأوردة لدم الإنسان والحيوان
 (س) كيف تبنى لافراد من طلاب الكسب الاجانب احتكار
 ماء النيل وماء نهر الكلب (نهر في لبنان تجره الى بيروت شركة اجنبية)
 كما تحتكر السلع وعروض التجارة ويبيع لاهل البلاد بالمال . ومن كان
 (لولا المشاهدة) يصدق ان الأمة تمنع الي دولة لا يمكن للوطني معها
 ان يتناول جرعة من ماء بلاده الا اذا اقتضى الاجنبي منه ثمنها المعلوم عن
 رضى واختيار (أما وسر العلم والاجتهاد لو وجد مثل هذا الخبر في
 كتب تاريخ الامم القديمة لعد من هذيان القصاص المولعين بتلقيق
 الاكاذيب للاعجاب والافراب)

(س) بماذا تخرز الامم القوة والمنعة وتمتد على أوطانها الغلبة والظفر
 وكيف استولت انكرا على ممالك الهند وعلى استراليا والكاب والنيجر
 وكندا وكيف استولت فرنسا على بلاد الجزائر وتونس والسنغال ومدغسكر
 وأنام وكبوديا وكوشين صين وتونكين وكيف استولت هولندا على كذا
 والمانيا على كذا

(س) كيف يسهل على تفرق قليل الاستيلاء على شعب كبير يصرفونه
 في مصالحهم ويستغفمون افراده في منافصهم ويستعملونه كما تستعمل الدواب
 والانعام بل يديرونه كاتدار الآلة الصماء وهو لا يدري علة هذه السلطة
 ولا وقوف لافراده على حقيقة اسبابها ولعله لا يشكر فيها أيضاً كما نفاقده

كل احساس وشعور

(س) كيف أمكن للامير كاتين إلقاء السلطة الانكليزية عن عواقبهم
وطرح أوزار سيطرتها عن كواهلهم واتحاد ولايات بلادهم تحت لواء
واحد تستضيء بنجومه امم ويخشى من شبهه آخرون . حتى ان أوربا تحذر
منه على ما بقي لها في العالم الجديد وتتوقع تنفيذ قول مونرو « أميركا
للأميركيين » وبالجملة

(س) ما هي الآلة الرافعة للمتطوحين في عوائير التماسه والشقاء
والتدهورين في مهاوي الخذلان . وما هي المدارج التي ترقى فيها الامم
الى المدينة الصحيحة والمعارض التي تصعد عليها الى مراتب الكمالات
للصورية والمعنوية، من دينية ودنيوية، وما هو النور الذي يستضاء به في ظلمات
الجهل والغباوة والمنار الذي يهتدى به في مهامه الخيرة ومجاهيل الخطوب ??

فلما فرغت المسائل، وسكت السائل، وطلب ما عند القوم من الجواب
ابتدر أحدهم فقال لاشك ان الامراء والحكام الذين يكو تون بنى (جمع
بنية) الامم وينفخون فيها روح الوحدة، وينشقونها نسيم الحياة الوطنية،
ويعمدون فيها جداول الثروة بما يمدون من طرق الكسب ويحفرون من
الترع ويننون من المعامل والمصانع ويهيئون من الآلات والادوات الخ
ما اشترتم اليه من أسباب السعادة

فرد عليه السائل قائلاً اذا فرضنا ان الحكومة غنية مع فقر الامة
وأمكنها أن تعمل كل هذه الاعمال فهل في استطاعة الحاكم أن يقتلع
من نفوس الامة جرائم الاخلاق الذميمة وينقي منها ذور المعاديات
الرديئة التي تنجم عنها الافعال المضرة ويفرس فيها أشجار الاخلاق

الفاضلة والسجاياء الجميلة التي تثمر الاعمال النافعة ؟ كلا ان من يلقي التبعة كلها على الحكام مخطيء في حكمه واني رأيت أكثر الامم الشرقية لا يرون لا تقسيم، جوداً الا بالحكام ويرون ان صلاح الامة وفسادها وغيرها ورشادها وصحتها ومرضاها وغناها وفقرها بل ومجياها ومماتها كل ذلك بيد الحاكم حتى كأن الحاكم بيده ملكوت شيء وهو يجير ولا يجار عليه وكان هذا الوهم متسلسل فيهم بالارث من عهد من قال « أنا حي » وأميت وعهد من قال « أنا ربكم الاعلى » وجهلوا أن الحاكم ليس الا رجلاً من الامة وان الحاكمية ما زادت في فضائله ولا منحتة قوة فوق القوى البشرية بل ربما أفسدت أخلاقه وأسقت مداركه (كما شوهد في البعض) والصواب ان اصلاح الامة لا يكون من الحاكم نعم ان الحاكم اذا ساعده يكون أسرع سيراً وأقرب نجاحاً. ثم انبرى آخر للمجاوبة وقال ان الطريق الوحيد لانهاض الامة من ضعفها وأقالة عثرتها واقامتها في مصاف الامم القوية انما هو تسليم ازمة أهورها الكلية الى رجال من ساسة تلك الامم يقيمون فيها القسط ويرفعون لواء العدل والمساواة وينقلون أيدي المتسلطين عن التمدي ويحجثون شجرة الرشوة الخبيثة من أصولها ويعمّمون فيها الامن وينشثون المعامل والمصانع ويسهلون الطرقات ويقربون الابعاد بما يمدون من السكك الحديدية واسلاك التلغراف والتلويون ويوسعون دائرة الاكتساب بانشاء الشركات المالية التي هي أسس جميع أنواع التقدم من زراعة وصناعة وتجارة وينشرون للمعارف الصحيحة التي لا توجد الا في لغاتهم فلا يمضي على الامة اربعون سنة - حتى تنشأ خلقاً جديداً

قال السائل وقد اضطربت نفسه وانفعلت روحه وتبيخ دمه حتى
كان يقصد من وجهه

اذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أهلك ما شفا كما
تقد أخطأ ظنك يا أخي واستحوذ عليك شيطان الوهم ولقد ثرت
الملح على جرحي بجوابك هذا اما علمت ان ساسة تلك الامم الذين اشرت
الى تسليم كليات الامور اليهم قد تربوا في بلادهم على حب اوطانهم ووقف
حياتهم على نفع امتهم وقد تطبعوا على ذلك عملاً فصار ملكة راسخة في
نفوسهم تصدر عنها جميع حركاتهم وسكناتهم من غير روية ولا تكاف .
وان جميع ما يبرز من اعمالهم مفيداً للامة التي يتولون اصلاحها في الظاهر
لا بد ان يكون في باطنه منفعة لامتهم فان المنفعة هي القطب الذي تدور
عليه رحي اعمالهم فلا ينشرون من المعارف في البلاد الا ما يشرب القلوب
حبهم واعتقاد عظمتهم ويفسد على الاهلين لغتهم وعوائدهم وتقاليدهم التي
كانوا بها امة ممتازة عن غيرها مستقلة في وجودها

ولا يوسعون دائرة الكسب الا للعارفين باساليبه من ابناء وطنهم
فتسيل طرق الثروة حسية وممنوية وتعميم الامن والضرب على ايدي
المتسلطين كل ذلك وسيلة لتمسكهم في الارض وسد اثباج الثروة عن
ابناء الوطن وتحويل تلك الاثباج والمجاري الى الآخريين

نعم ان الوطنيين يتمتعون منها بقليل من الراحة التي تزيد في كسلهم
وتقاعدتهم حتى يؤل الامر الى امتلاك الاغيار لارضيتهم الواسعة ويتخذونهم
اجراء ومزارعين فيعلمون كيف دس لهم السم في الدسم حين لا ينفهم
العلم . سألت عما ينهض بالامم، فاجبتني بما يقذفها في تيهور العدم ويهبط

بها الى أسفل سافلين

ثم تصدى للجواب رجل ثالث فقال ان الجرائد الحرة هي التي تنبه أفكار الامة وتغير عقولها بنشر المعارف وترشدتها الى التحلي بانفضائل والتخلي عن الرذائل وتدلها على أساليب المدنية وترعجها الى العمل بها تارة بالترغيب والتنشيط وطورا بالترهيب والتحذير من عواقب التفريط وتحرك من نفوسها كوامن الصيرة التي تدعو الى المنافسة والمباراة الى غير ذلك من الفوائد التي لا تمزب عن علمكم

فقال السائل ان الجرائد وان كان لها الشأن العظيم عند الامم الممدنة والآثر المشهود في سير مدنيهم التي تعتبر الجرائد كالحداثة له الا انها ليست هي الموجودة لتلك المدنية . فاذا لم يوجد في الامة سير الى المدنية الفاضلة فلماذا يكون الحداثة . نعم ينبغي ان تنشأ عندنا جرائد لاجل الحث على الاجتماع وتعيين الغاية التي ينبغي ان تقصد والوجهة التي يجب ان تولى ثم الحث على السير الى تلك الغاية في الطرق الطبيعية التي سنها الله تعالى لها وهدانا الى سلوكها ثم الحداثة الذي يسهل على السائر من احتمال المتاع وقطم المسافة مع النشاط والارتياح

ولا أقول ان الجرائد هي المصلحة لحال الامة بل هي مساعدة على الاصلاح اذا صدقت وأخلصت وأفضل عملها ايصال أفكار الطبقة العاقلة من الامة الى سائر الطبقات تحت مبدإ واحد شريف فاعلم المدار على الوحدة كما أشرنا أولاً

ثم التفت الى القوم فقال هل بقي عندكم شيء من الاجوبة فاجابوا بلسان واحد لا وانا نطلب الجواب من حضرة السائل الحكيم

